سنوات التجربة الأولى

من عجائب الأقدار أن هذا الشيخ الرائع والعالم الجليل والمفسر الملهم ، كان لا يريد لنفسه هذا الطريق من البداية.. فقد كان " الشعراوي الطفل " لا يريد أن يذهب إلى الأزهر.. ولا يريد أن يدرس فيه بل كان مرتبطاً ارتباطاً " سريا" كل الحبل السري الذي يربط الجنين بأمه غير أن الأم في هذه الحالة والتي ارتبط بها الشيخ الشعراوي كانت الأرض.. ولكن ليست أي أرض بل كانت أرض القرية.. قرية دقادوس.

حاول الشيخ أن يهرب من الالتحاق بالأزهر وذلك بمحاولة أن "يسقط نفسه " في الكشف الطبي عندما قدم له والده في معهد الزقازيق " وهي عاصمة محافظة الشرقية " الابتدائي والذي يتبع الأزهر. وهنا ندع الشيخ رحمه الله لتذكر هذه الأيام وعنها يقول.

- قبل الكشف بعدة أيام أخذت أضع الشطة في عيني.. لكي تحمر.. وتورم.. وتلتهب.. ويقولوا " عينيه تعبانة " ولا يصلح.

ولكن عيني كانت " تفنجل " أكثر !

واكتشفت أن هناك قسما للمكفوفين. فقلت لنفسي. وليه أخسر عيني إذا كان الكشف الطبي لا يغير من شيء !

وحاولت مرة أخرى أن " أسقط نفسي " في الامتحان الشفوي. وكنت أتعمد اللخبطة " ولاحظ ذلك الشيخ الذي كان يمتحنني فسألني؟

فيه حد جاي معاك هنا يا ولد؟

قلت: أيوه.. أبويا

قال الشيخ وهو يشير إلى أحد الحاضرين:

- هاتوه. نادوا عليه.

وجاء والدي..

وسأله الشيخ: ابنك ده.. حافظ القرآن؟

فقال والدي: نعم. أنه حافظ للقرآن الكريم حفظا جيدا.

قال الشيخ: الولد بيعمل أنه موش حافظ. وبيلخبط عن قصد وأنا ملاحظ كده !

ووجه الشيخ الممتحن كلامه لي قائلاً:

- قوم يا ابن الكلب.. ناجح

ويعلق الشيخ على هذا الموقف في سياق ذكرياته عن هذه الفترة من حياته ضاحكا:

وهكذا شاءت إرادة الله أن أدخل الأزهر الشريف. وأن تتحقق رغبة والدي.

ويذكر الشيخ الشعراوي أنه رغم التحاقه بالتعليم الأزهري. إلا أنه لم يكن راغبا في الاستمرار فيه في مراحله الأولى ، وكان يعاوده الحنين للعودة إلى قريته والاستقرار فيها والعمل بالزراعة. وأنه أخذ يثقل على أبيه في طلب النفقات وشراء المراجع والكتب حتى يضيق به ويوافق على عودته والانقطاع عن الدراسة.

يقول الشيخ: أذكر أنني كتبت له " يقصد والده " قائمة طويلة بأسماء الكتب التي أريدها باعتبارها من الكتب المقررة علينا في الدراسة. ولم تكن هذه الكتب ضمن الكتب المقررة ولكني أردت التضييق عليه وتعجيزه.

كانت الكتب التي طلبتها من بين أمهات الكتب في التراث وغيره ومنها على سبيل المثال:

العقد الفريد وهو لابن عبد ربه الأندلسي. وفي ثلاثة أجزاء.. وشرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد، وهو من تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل إبراهيم ، وفي ٢١ جزءا.. ومجمع الأمثال لأحمد بن محمد الميداني ، وهو عبارة عن أربعة أجزاء. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي.. وجميع مؤلفات مصطفي لطفي المنفلوطي.

هذه الكتب وغيرها كثير طلبت شراءها.. وقلت له: أنني محتاج لها.. وفي أسرع وقت.

وفوجئت بوالدي يشتريها ويحضرها لي.. كل الكتب التي طلبتها. وقال وهو يقدمها لي: أنني أعلم يا بني أن جميع هذه الكتب التي طلتها ليست مقررة عليك. ومع ذلك فقد اشتريتها لك.. لكي تنهل من علومها.. وتنمي ثقافتك!.

وبعد هذه الواقعة بدأت ألتفت جديا للدراسة وأدركت أنه لا عذر لي بعد ذلك ولا حيلة.

ويضحك الشيخ وهو يقول: الكتب التي طلتها واشتراها لي والدي كان ثمنها يزيد على ثمانية جنيهات.. وهذا المبلغ في ذلك الوقت كان يكفي لشراء جاموسة.ويتحدث الشيخ الشعراوي طويلا عن والده ، وعن حبه للعلم والعلماء فيقول:

- يشهد الله أنني أخذت من معلمي ١٠٪ من ثقافتي... وأخذت من أبي الرجل الأمي ٩٠٪ من ثقافتي.. لقد تحمل والدي الكثير من أجل أن أواصل دراستي في الأزهر.

أذكر أنني طلبت منه يوما وأنا طالب أن يعطيني عشرة جنيهات وسألني: لماذا عشرة جنيهات؟ فقلت له: أنا في حاجة إلى عشرة جنيهات.

وفي اليوم التالي أعطاني الجنيهات العشرة بصورة أغضبتني. فلم يضع العشرة جنيهات في يدي مرة واحدة.. وإنما أخذ يعدها جنيها، جنيها. وتأثرت من ذلك كثيرا ، فهو لم يسبق له أن فعل ذلك معي. كان دائما يعطيني كل ما أطلبه وهوة في غاية الرضا والسرور. وسألته بغضب: بتعد العشرة جنيه ياباً؟! فقال وهو يخفي ضيقه: إيوه.. علشان لما تاخد شهادة العالمية وتتخرج وتتوظف تبقى ترد لي هذا المبلغ !

قلت وأنا في مندهش: واشمعنى المرة دي يعني تقول الكلام ده؟

وسكت أبي ولم يرد. وأحسست أن هناك شيئا لم يفصح عنه فقلت له:

روح يا شيخ.. الله لا يحوجك لي !

وابتسم والدي وضمني إلى صدره ، وقبلني. ومرت الأيام وأنا لا أنسى تلك الواقعة التي حزّت في نفسي.. وهي أن والدي لم يعطني العشرة جنيه مرة واحدة بل راح يعدها جنيها جنيها ولم يحدث من قبل أن فعلها. فما هو السبب يا ترى؟!

ثم حدث بعد أن تخرجت وعلمت أستاذا بكلية الشريفة في مكة المكرمة وجئت في الإجازة ومعي مبلغ من المال.. فأشار والدي بأن يبني لي بيتا ، واشترى لي قطعة أرض بالفلوس التي بقيت معي وشرع في بناء البيت. ولم تكف الفلوس فباع بقرتين وجاموسة وأعطاني المبلغ في يدي. فتذكرت يومها حكاية الجنيهات العشرة التي أعطاها لي جنيها جنيها.. وقلت له: أنت فاكر يوم أن أعطيتني العشرة جنيه وأنت تعدها جنيها جنيها !

قال: أيوه فاكر.

قلت: سألتك يومها لماذا تعدها؟ فقلت: لكي أردها لك عندما أتخرج في الأزهر وأتوظف؟

قال: أيوه..

قلت: ولم أرد لك العشرة جنيه حتى ألآن؟

قال وهو يضحك: أيوه.. ولكنك دعوت لي بها.

قلت: ألا، تضع في يدي مبلغا كبيرا.. مرة واحدة. ولم تسألني عن رده ! أريد أن أعرف منك يا والدي.. لماذا عددت العشرة جنيه يومها؟ وطالبتني بأن أردها لك عندما أتخرج وأتوظف؟

قال والدي وهو يتذكر: لم أقل لك وقتها من أين أتيت لك بالعشرة جنيه. ولم يكن معي هذا المبلغ. وكانت الظروف صعبة جدا. وفكرت طويلا من أين أحصل عليه. وأخيرا قصدت أنسانا وطلبت منه أن يقرضني العشرة جنيه وأن يمهلني في ردها ، وعرضت عليه أن أكتب له " إيصال أمانة " وأن أجعل للمبلغ " فائدة " إذا أراد وأدرك الرجل أنني في حاجة ضرورية لهذا المبلغ فأعطاه لي دون أن يقبل بكتابة " إيصال أمانة " وقال: على مهلك ،وفي أي وقت ترده لي !

وجئت من عند هذا الرجل بالعشرة جنيه لأعطيها لك دون أن أفصح لك عن هذه الحكاية.

قلت: أنا لم أرد لك المبلغ طبعا.. ولكني دعوت لك به يومها.. فهل تذكر دعوتي لك؟

قال: فاكر كويس.. قلت لي يومها: " الله لا يحوجك لي ".

obeikandl.com

قلت: أما دعوتي لك اليوم.. فهي " الله لا يحوج بعضك لبعضك يا والدي " فضمني إلى صدره. وقبلني..

" كان والدي يعلم معنى دعوتي له.. فقد كان له صديق مصاب بعاهة في إحدى يديه.. وكان يستعين بيده غير المصابة في تحريك يده المصابة.. أي أن بعضه يحتاج إلى بعضه !.

***

obeikandl.com